

الحكايات للافونتين

بقلم الدكتور على درويش

مدرس الأدب الفرنسي بجامعة عين شمس

حياة لافونتين وشخصيته

حقاً إن تاريخ الأدب يكتب ببطء ! بالأمس قال معاصرو لافونتين عنه - ضمن ما قالوا - انه « ساذج » ... واليوم - وقد انقضى على وفاته قرابة ثلاثة قرون - يحى أساتذة النقد فيقطعون بأن طبيعته لا تزال لغزاً لم يحل بعد: يقول رينيه برييه René Bray إن الغموض لا يزال يكتنف حياة لافونتين وتاريخ انتاجه ويقول انطوان آدم Antoine Adam إنه لمن الصعب أن يُسبر غور هذا الرجل ... وفي الماضي كان الناس يعتقدون أن حكايات لافونتين موجهة إلى الأطفال ، ولكن سانت بييف Sainte-Beuve يقول في القرن التاسع عشر: « إن لافونتين الذي يُقدّم إلى الأطفال لا يمكن أبداً للقارئ أن يتذوقه جيداً إلا بعد سن الأربعين » ... من هو إذن هذا الرجل الذي صارت حياته كالأسطورة ، هذا الشاعر الفريد الذي لا يشبه شاعراً آخر على الإطلاق ؟ ماكنه فنه الذي أخفق في تقليده عشرات من الكتّاب في حياة وبعد مماته ؟ سرى .

وُلد لافونتين عام ١٦٢١ في شاتوتيرى Chateau-

Thierry (بمقاطعة شبنانيا) ، التي كان أبوه مشرفاً على « مياهاها وغاباتها » . وتلقى في البداية دراسة دينية دفعه إليها - بما كان يعيره إياه من كتب - قس سواسون Soissons الذي لم يلبث هو نفسه أن نصحه بالعدول عنها حين لمس عدم تجاوبها مع استعداداته . وتقول رواية أخرى إن أساتذته من رجال الدين هم الذين طردوه لسوء سلوكه ! كان في الواحدة والعشرين من عمره . ثم ذهب إلى Reims لمتابعة تعليمه ؛ ولكنه لم يفعل أكثر من التقاته ببعض المثقفين أمثال موكروا Maucroix الذي حضه على دراسة القداى وبعض المحدثين ... فأولع بافلاطون ، وحفظ عن ظهر قلب أشعار مارو Marot وماليرب Malherbe وراكان Racan .

وفي السادسة والعشرين من عمره أراد أبوه أن يكفل له حياة جادة مستقرة ، فنزل له عن وظيفته ، وزوجه من فتاة عمرها أربع عشرة سنة : أما الوظيفة فوجدتها - إلى حين - موالية لنزوعه إلى الكسل والتجوال في الغابات ... وأما الزوجة فلم يجد فيها ما يبتغي من المفاتن والمزايا ... كتب إليها بعد ستة أعوام يقول : « إنك لاتلعبين ولاتعملين ولا تهتمين

بشئون بيتك ، وكل ما تشغلين به ما يتبقى لك من وقت بعد مقابلة صديقاتك هو قراءة القصص المسلية !
سيأتى الوقت الذى سيهيم فيه على نفسه والذى سيُنسيه فيه شروده أن له زوجة وابنا يافعا !

وكاد القدر أن يقضى عليه بأن يظل شاعراً مغموراً من شعراء الريف لولا أن قيض له الله أحد أقاربه ، هو المستشار جانار Jannart الذى صحبه إلى باريس حيث قدمه إلى مراقب عام المالية فوكيه Fouquet وكان أخطر شخصية فى الدولة بعد الملك . وأعجب به فوكيه فنحه إعانة دائمة بشرط أن يكتب قصيدة كل شهر . وفى بذخ قصر هذا الرجل الخطير ، وفى ترف قصر دوقية بيون duchesse de Bouillon التى اجتذبتة نحوها وأحاطته برعايتها هى الأخرى ألفت قريحته ... وهام لافونتين بباريس ، ولم يكن يغادرها إلى مقر وظيفته فى منطقة شامبانيا إلا فى فترات متباعدة يصرف شئون الوظيفة فى غير اكتراث ، ويبيع الجزء تلو الجزء مما خلقه له أبوه من ملكيات ... سيأتى اليوم الذى يفقد فيه كل ما ورث ويصبح مفلساً كل الإفلاس ! لن ينقذه من الهاوية إلا مدام دى لاسبليير Madame de la Sablière التى ستؤويه خلال الفترة الأخيرة فى حياتها ، أى عشرين عاماً !

ويروى عن لافونتين أنه لم يكن يظن إلى أنه رُزق موهبة الشعر إلا ذات يوم حين قرأ عليه أحد الضباط فى Chateau-Thierry قصيدة لما ليرب Malherbe عن إحدى محاولات اغتيال الملك هنرى الرابع . هنسا شعر برغبة ملحّة فى قرض الشعر ، وبدأ يكتب منه قطعاً كانت رديئة كلها ... على أن الشئ المسلم به هو أن نبوغه لم يظهر إلا فى سن الأربعين .. كيف ؟ فى عام ١٦٦١ غضب لويس الرابع عشر على فوكيه ، فأمر بسجنه ، وإذا بصداقة لافونتين وعرفانه يُطلقان لسانه بأول أشعار تلوح فيها ملامح العبقرية : كتب قصيدة طويلة عنوانها "L'Elégie aux Nymphes

"de Vaux" ، هى القماس بالغ التأثير موجه إلى الملك المستبد ... فالحق أن لافونتين كان مشعباً بروح تلك الصداقة النادرة التى لم تُكتب من وجها صفحات كثيرة ، والتى لم يعبر عنها فى الأدب الفرنسى بعمق يستأثر بالنفوس سوى مونتني Montaigne . وجزع لافونتين لما لحق صديقه فوكيه من عنت الملك الطاغية ، ومرض ، ثم رحل إلى ليموزان Limousin . وفى رحلته كان يكتب ما يشبه المذكرات ويوجهه شعراً ونثراً إلى زوجته ، مذكرات تنطق بالألم والحسرة من أجل صديقه المنكوب .. وتوقف فى طريقه فى أمبواز Amboise ، فبحث عن مبنى سجنها الذى زُج فيه بفوكيه ، وجمد أمام بابه ، ولم « يرح مكانه حتى أدركه الليل » ! لقد كانت الصداقة شيئاً حيوياً فى حياة لافونتين : ملكت عليه نفسه ، وأهمته فى كثير من أشعاره ، وهى تصلح لأن تكون موضوعاً لرسالة قيمة يتناول فيها الباحث - بالضرورة - علاقة لافونتين بموليير وراسين وبوالو وشابل Chapelle وموكروا Maucroix ، فضلاً عن فوكيه .

وشخصية لافونتين تسترعى الانتباه حقاً ، وهى بدورها تكون مادة خصبة للدراسة سيكولوجية شائقة . لندعه أولاً يتكلم :

إنى أحب اللعب والحب والكتب والموسيقى .
والمدينة والقرية ، وبكلمة واحدة كل شئ .
ولا شئ قط يعجز عن امتاعى أياً امتاع .
حتى ولاتلك اللذة الكثيرة التى يحسها قلب مبتئس .
وينادى اللذة فيقول :

أيتها اللذة ! أيتها اللذة ! يا مَنْ كنتِ فيما مضى مسيطرة

على أجمل عقل فى اليونان ،
لا تستخفى بى ، تعالى واسكنى لدى ،
انك لن تكونى عندى بلا عمل .

أخرى ، كانا يقويان ضعف إرادته ، إن صح التعبير .. هذا الرجل الذى أسدى النصح بسخاء إلى الآخرين ، وقدم إليهم فلسفة عملية فى الحياة ، كان عاجزاً عن توجيه حياته والعناية بشئونه الخاصة ؛ من هنا كان فى حاجة مستمرة إلى من يأخذ بيده ويسهر على أموره : تكتئه قد تكون دوقة بويون duchesse de Bouillon ، وقد تكون مدام دى لاسبليير Mme de La Sablière ، وقد تكون مدام ديرفار Madame d'Hervart التى عاش فى كنفها أواخر أيام حياته . كان كل ما يشغله ويستويه هو التأمل — كما قلت — فى هذه الدنيا بما فيها ومن فيها ، ولقد كان يؤمن بوجود إله منظم لها هو مصدر الصواب ... كان حساساً إلى أقصى حدود الحساسية أمام سحر الطبيعة ، لئنصت إليه مرة أخرى وهو يذكر طرفاً مما يحبه فى الحياة :

أن أهم فى حديقة ، وأن أتوه فى غابة
أن أنام على الزهور ، وأن استنشق عبقها
أن أصغى — وأنا سارح الخيال — إلى خريف عين
من العيون

أو إلى جدول يتدفق ماؤه على الحصى .
أحب لافونتين كل هذا وغيره ؛ ومن المؤكد أنه أحب كذلك جلسات الأكاديمية الفرنسية التى كان يذهب إليها « ليرفه عن نفسه ! » .. كيف وفق فى الظفر يعصوبتها ؟ لقد أحرر انتخابه وكاد يمنعه نهائياً كره لويس الرابع عشر له .. هذا الرجل المستبد كان لا يتذوق النوع الأدبى الذى برع فيه لافونتين . وفى عام ١٦٨٣ تنافس الشاعر وصديقه الناقد (بوالو) على كرسي شاعر بالأكاديمية . ودار فى الجلسة نقاش طويل وعنيف طرفاه الأعضاء الموالون للقصر من ناحية ، وكانوا يؤيدون مؤرخ الملك ... ورجال الأدب من ناحية أخرى ولا سيما هؤلاء الذين لم يسلموا من قلم بوالو ولسانه ، وكان

وكيفها كان سعيه وراء الملذات ، فمن المؤكد أن حقيقة الأمر قد تأثرت بفعل الأساطير التى نُسجت حول سمعة هذا الرجل « الطيب » . وهناك شئ آخر لا تُعرف الحقيقة عنه بدقة قاطعة ، هو حديثه ! أكان مملاً ؟ أكان طليئاً ؟ الآراء فى ذلك متناقضة : كتب فولتير إلى فوفنارج Vauvenargues : « إن طبيعة هذا الرجل الساذج من البساطة بحيث كان حديثه لا يعلو على الحيوانات التى كان بمنحها الكلام . إن النحلة رائعة ، ولكن حين تكون فى خليتها ، فإن غادرتها لم تصبح أكثر من ذبابة » ! .. بينما يرى « سانت بيث » أن صاحب الحكايات كان محدثاً لطيفاً فى الأوقات التى لم يكن فيها مغرقاً فى التفكير والشروود . ويقول لويس راسين إن من الموضوعات التى كانت « توقظ » لافونتين وتثير تحمسه أفلاطون ... ويضيف فيرجيه Vergier إلى أفلاطون السلام والحرب ، النبيذ والنساء ! .. ولكن أى فئة من النساء ؟ — هؤلاء اللاتي لا يقتضى الوصول إليهن بذل جهد طويل !

ومشكلة الجهد الطويل تستتبع حتماً الكلام عن مجموعة أخرى من عناصر شخصية لافونتين . كان كسولاً ، ميالاً إلى الإفراط فى النوم ؛ ألم يسم نفسه « ابن الكسل والنعاس » ؟ لقد وصف بافيون Pavillon إحدى جلسات الأكاديمية — وكان لافونتين عضواً فيها — ولم يفته أن يصور هذا الشاعر وهو غارق فى سبات عميق ! .. طبيعة هذا الرجل كانت تنزع إلى العزلة والهدوء ، إلى الملاحظة والتأمل : تأمل الغابات والمراعى والحقول وما تحتويها من زهور وغيون وحيوانات ، تأمل الحياة الساكنة الآمنة البعيدة عن هياج الناس ... وفى عزله كان يشعر دائماً بالاكتئاب ، ذلك لأنه كان يظن أنه سيُالحظ ، وأن الاخفاق يلاحقه فى كل عمل يقوم به ! وشعوره هذا من ناحية ، وكسله من ناحية

التي تكلدست وملاأت اثني عشر كتاباً نشرها في ثلاثة
دواوين سننوا لها في الصفحات التالية بالبحث
والتحليل .

وشهادة لافونتين عن نفسه خير ما يقال عن عدم
استقراره هذا ، ومحاولته الإبداع في شتى أنواع الأدب ؛
لندعه يعترف :

إني فراشة الشعر ، أشبه النحل

وإني لشئ خفيف أطيّر إلى كل موضوع

كتب - إرضاء لدوقة بويون واستجابة لرغبتها -
مجموعة كبيرة من الأفاصيص بالشعر (Les Contes)
وهو إنتاج منحرف ينم عن مزاجه العاصف وعن
ايقورتيه ، ويزخر بالتفاصيل التي قد تهدر كرامة
القارئ أو تخدش حيائه .. شئ عجيب : لقد
أصابته هذه الأفاصيص نجاحاً كبيراً ! .. وكتب عدداً
من الكوميديات أهمها « الأغا » (L'Eunuque) التي
قلد فيها الشاعر اللاتيني تيرنس Térence ولكن هذا
الجزء من إنتاجه لا يكاد يذكره أحد - والف مأساة لم
يتمها هي صوت أخيلوس La mort d'Achille .

وكتب رواية مطولة بعض فقراتها بالشعر أطلق عليها
« مغامرات بيسييه (Les aventures de Psyché)
(بيسييه - في الأساطير اليونانية - فتاة رائعة الجمال أحبا
الحب وانتهى الأمر باقترانهما !) ولعل من أهم أصدق
إنتاجه الثانوي تلك القصيدة الطويلة التي قالها دفاعاً عن
فوكيه محاولاً فيها انتزاع عفولويس الرابع عشر عن صديقه .

هذه القصيدة هي Elégie aux Nymphes de Vaux
التي أشرت إليها . تضاف إلى كل هذا رسائله الشعرية ،
وكان أهم ما وجه منها إلى هوييه Huet وإلى مدام
دني لاسبلير ... الشئ الذي ينبغي ذكره هو أن
الإنتاج الوحيد الذي كان يتناسب مع عبقرية
لافونتين هو « حكاياته » التي صاغها على ألسنة
الحيوانات .

هولاء يدعمون لافونتين . وأسفر التصويت عن فوز
هذا الأخير ، ولكن لويس استعمل حقه في رفض
اعتماد نتيجة الانتخاب .. ولم ينقض عام حتى شغل
كرسي آخر بالأكاديمية ، فانتخب له بوالو ؛ هنا
رضى الملك وقال لمندوب الأكاديمية : « إن اختياركم
ديبرييه Despréaux (بوالو) يسرنى كثيراً ، وسوف
يتقبله الناس جميعاً بارتياح ، وانتم تستطيعون الآن
أن تستقبلوا السيد لافونتين .. لقد وعد بأن يكون
عاقلاً » !

إن لافونتين الآن في الثانية والستين ، ولا يبقى له
من عمره سوى اثني عشر عاماً ... وفي نفس السنة يخلو
فجأة قلب مدام دني لاسبلير إثر خيانة صديقها الماركيز
دولافار Le Marquis de la Fare فزهده في الدنيا ،
وتحاول التقرب إلى الله بالتعبد والتوفر على عمل الخير ؛
كان سلوكها بمثابة قدوة لخطيها ! ولكنه لم يقتد ،
فاذا بموتها - بعد عشرين - يفاجئه موجهاً إليه
إنذاراً أخيراً ! ... هنا ثاب إلى رشد ، وبدأ يغير
طريقة حياته ، ويمنعها شيئاً هو أكثر من الاعتدال
فقد أخضع نفسه لتكشف شديد ... وقبل موته بشهرين
كتب إلى صديقه القديم فرانسوا موكروا Maucroix
يقول : « آه يا عزيزي ! إن الموت ليس أمراً ذا بال ،
ولكن هل تفكر في أنني سأمثل أمام الله ؟ إنك تعرف
أي حياة عشتها ... » وحين توفي في عام ١٦٩٥ عن
أربعة وسبعين عاماً لوحظ على جثته مسوح ... لقد
كان قد لبسه ليقمع به جسده ، وليكفر به عن بعض
ما اقترف في حياته من آثام !

أعمال لافونتين الأدبية

لم يكن لافونتين يعرف أين توجد عبقريته ، فلم
يستقر في نوع من الأنواع الأدبية ، وإنما كان ، دائم
التجوال بينها جميعاً ، وإن كان - مع ذلك - كثير
التردد على « الحكايات » أو « الخرافات » Les Fables

« الحكاية ، قبل لافونتين :

الميلاد . وكثير من المؤرخين أمثال هيرودوت ، و 'Elien' ، وديودور الصقلي ، والكتاب الأخلاقيين أمثال بلوتارك Plutarque رصعوا كتاباتهم بالحكايات التي تجري على ألسنة الحيوانات . وبلغ بحب الإغريق لهذه الحكايات واهتمامهم بها أنهم كانوا يرتبونها في فئات تبعاً لمصادرها أو الطابع الغالب عليها ، فقالوا : « حكايات قبرصية » و « حكايات لاذعة » مثلاً ، إلا أن الأمر انتهى باندماج هذه الفئات جميعاً وباتخاذها اسم « حكايات ايزوب » (Esopo) . وتاريخ الأدب لا يكاد يعرف شيئاً عن ايزوب هذا ، وإن كان من المحتمل أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد ... ولكن ترى هل ألفت فعلاً الحكايات المنسوبة إليه ؟ أما الأساطير فتؤكد ، وأما التاريخ فيشكك لافتقاره إلى الأدلة على أن الشيء الذي لا يحتمل الشك هو أن التراث الإغريقي نسب إليه كثيراً من الحكايات الخلقية ، وأن الأطفال كانوا يحفظونها عز ظهر قلب ، وأنه بلغ من حب سقراط لها أنه - كما قيل عنه - كرس أواخر أيامه في السجن لوضع بعضها في قالب شعري . وإذا كان نقل هذه الحكايات لم يصعب بتعديل كبير في جوهرها ، فقد اختلفت الأساليب التي كتبت بها . وأحسن صياغة لها تُنسب إلى Babrios الذي يسميه لافونتين Gabrias ، والذي يرجّح أنه عاش في سوريا في أواخر القرن الثاني الميلادي . وإذا كانت مجموعة الحكايات الإيزوبية لم تكتشف إلا في عام ١٨٤٣ في خزائن دير يقع في جبل Athos ، فمن المؤكد إذن أن لافونتين لم يطلع عليها باللغة اليونانية ، وإنما عن طريق الترجمات التي ترجع إلى الناقلين اللاتينيين والبيزنطيين والعرب ، إذ الشيء الجدير بالذكر هو أن هذه الحكايات صادفت اهتماماً بالغاً في عصر النهضة .

وإذا كانت الحكايات الهندية أغنى وأخصب من الحكايات اليونانية ، فإن هذه الأخيرة كانت أسهل

لقد عرفت معظم الشعوب في طفولتها الأفاصيل التي تُسرد على ألسنة الحيوان ، ومن أشهر هذه الشعوب الهنود والإغريق ، والحكايات الهندية والإغريقية تكون المصدرين الأساسيين لخرافات لافونتين : أولاً ، المصدر الهندي : وتوجد هذه الحكايات في روايات سنسكريتية متعددة ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد . وقد تُرجمت إلى اللغة الفارسية في القرن السادس الميلادي بعنوان « كليلة ودمنة » . وبعد ذلك بقرنين نُقلت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ، ثم ترجمت من العربية إلى العبرية . وفي القرن الثالث عشر ترجمت من العربية إلى اللاتينية ، وبعد ذلك بثلاثة قرون بدأت كتب الحكايات المستوحاة من المصدر الهندي (من الترجمة اللاتينية) تظهر في لغات أوروبية متعددة من بينها الفرنسية . وقد قرأ لافونتين - من هذه الكتب - كتاب جبريل كوتيه Gabriel Cottier (أحاديث الحيوانات) الذي نشر في عام ١٥٦٦ ، وكتاب پير لاريفي Pierre Larivey (وعنوانه كتاب الفلسفة الخرافية) الذي ظهر في عام ١٥٧٩ .. وفي عام ١٦٤٤ ظهرت في فرنسا للمرة الأولى طبعة من « كليلة ودمنة » معدلة ومترجمة من اللغة الفارسية ، وكان عنوانها : « كتاب الأضواء أو سلوك الملوك ، ألفه الحكيم الهندي بلييه Pilpay وترجمه إلى اللغة الفرنسية دافيد ساهيد David Sahid من أصفهان كبرى مدن فارس » ...

ثانياً ، المصدر اليوناني : وليست اليونان أقل غنى من الهند بالخرافات ، فالحيوانات تتحدث بين الحين والحين في مؤلفات كتّابها أمثال Hésiode ، و Archiloque ، و Stésichore ... La Batrachomyomachie - أو الصراع بين الجرذان والضفادع - محاكاة هزلية بالشعر للمحمة هوميروس ترجع إلى القرن الخامس قبل

وصولا إلى فرنسا ، وهى التى غذت لافونتين أكثر من غيرها . قد يقال : « والحكايات اللاتينية .. ما قصتها ؟ » ، والرد على ذلك هو أن الرومان لم يُعرفوا بالقدره الخلاقه التى ميزت العبقريه الإغريقيه . من هنا نجد أنهم لم يبتكروا خرافاتهم ابتكاراً ، وإنما استمدوها من خرافات الإغريق . ومن هنا يمكن القول إن حكايات Phèdre هى عنها حكايات ايزوب ، وأن فضل « فادر » لا يعدو أن هذا الكاتب اللاتينى نظم بأسلوب جذاب الحكايات الإيزوبية التى كان Démétrius de Phalère قد صاغها بالنثر فى القرن الثالث قبل الميلاد .

نظرية الخرافة عند لافونتين وفنه

يقول لافونتين فى مقدمه « الحكايات » : « إن الحكاية تتكون من جزئين يمكن تسمية أحدهما « الجسم » والآخر « الروح » : الجسم هو السرد ، والروح هى المغزى .. ويحدد لها هدفاً مزدوجاً ، فهى يجب أن تعلم الناس شيئاً عن طريق المغزى الذى تحتويه وهى ينبغى أن تثير المتعة فى النفوس ليجئ هذا المغزى فعالاً قادراً على الإقناع ... كيف نكفل التعليم بالحكاية أو الخرافة ؟ بأن نمنحها طابعاً خلقياً وعلمياً معاً : خلقياً لجعلها تسهم فى تكوين الأخلاق وملكة الحكم على الأشياء ... وعلمياً بالحرص على جعلها قادرة على تبصير الإنسان بخصائص الحيوانات ، وبالأسباب التى تدعو إلى مقارنة بعض الناس ببعض فصائل الحيوان . وكيف نحقق الامتاع بالخرافة ؟ بالتنوع ... بالتنوع الموضوعات فحسب ، وإنما أيضاً تنوع طرق التعبير وتفاصيل السرد ، كما يحدث فى المحادثة ... وجددير بالذكر أن لافونتين يستجيب هنا للمبادئ - فى خطوطها العريضة - التى عرفت عن الخرافة قبل العصر الكلاسيكى الفرنسى .

والطابع المبتكر فى حكايات لافونتين هو أنه جعل

من كل منها دراما مصغرة : فيها « ديكور » (هنا غابة أو حديقة ، وهناك جدول أو نهر ...) ... وفيها شخصيات : هذه الشخصيات قد تكون حيوانات ، وهذا هو طابعها الأصيل ، لأن لافونتين يحب الحيوانات ولا يجد فيها مثل ديكارت مجرد آلات تتحرك ، ويراهها قادرة على الإحساس والحكم على الأمور ... من هنا صورّ بالدقة أشكالها وتصرفاتها ، وحلل خصائصها ، وبرزها لنا فى صور شخصيات بشرية ... وقد تكون شخصيات الدراما بشرية فعلاً ، ذلك لأن للناس هم الآخرون دوراً فى حكايات لافونتين وهوى صورهم بشيئهم ولغتهم وطبائعهم وعيوبهم الأبدية من مدهانة ودهاء ، من عنف ورياء ، من تهور وطيش ... الخ ... وفيها حركة : فخرافة لافونتين عالم متحرك ، وكل حركة تحتوى على عرض وعقدة وحل ... وقد تكون الحكاية ملهاة مثل « الإسكافى ورجل المال » . أو مأساة ، مثل « الأسد والذئب والثعلب » ... الخ .

صحيح أن معظم موضوعات حكايات لافونتين كانت معروفة قبله ، ولكنه استطاع أن يمنحها طابع شخصيته ، وأن يجددها بمزاجه الفنى المرح بحيث جعل منها فناً مبتكراً يحمل اسمه ، يقول عن المرح : « إن الناس يريدون الحديد والمرح ... وأنا لأسمى مرحاً ما يثير الضحك وإنما نوعاً من الطلاوة وسمة ممتعة يمكن منحها جميع الموضوعات ، حتى أكثرها جدية » ... على أن المرح لا يتنافى مع الحقيقة والوصف الساخر الذى يهدف إلى الإصلاح فينبغى للعيوب والردائل . يقول :

إنى أحاول فيها (فى حكاياته) أن أسخر من الرهبة فليس فى مقصودى أن أنبرى لها بلداعى هرقل

ملخص الحكايات

أضعف منه) - رجل الفلاك الذى هوى فى بئر
(استطرد فلسفى بشعر رصين) - الأسد والذئابة
الصغيرة (يقيناً أنها أحسن ما فى هذا الجزء، إنها تشبه
الملحمة فى حركتها وسمو أسلوبها).

من الكتاب الثالث :

الطحان وابنه والحمار (ملهاة رائعة تحتوى على
درس بليغ فى الأخلاق : إذا كان الإصرار رذيلة
الحمقى ، فان التردد يشين السلوك ويقضى على فاعلية
الجهود) - الضفادع التى طالبت بملك (تصوير لتقلب
الشعوب ... لقد دفع الغرور الضفادع إلى الإطاحة
بسيدها الذى كان دمث الخلق ، محباً للسلام ، فأرسل
إليها ملك الآلهة طائراً كبيراً ليحكمها ، ولكنه أهلكها
بالاقتراس والتقتيل) - الثعلب والتيس (مثل للطيش
وقصر النظر ... « إن نظر التيس إلى الأمور أقصر من
لحيته » ... لقد اجتذبه الثعلب إلى بئر وقع فيها
وصعد على ظهره ! خرج الثعلب ، وبقي التيس !) -
الأسد الذى أدركته الشيخوخة (درس نافع للقوة التى
يصيبها الاضمحلال).

من الكتاب الرابع

العجوز وابناؤه (مغزى هذه الحكاية أن القوة
تعتبر ضعفاً بغير اتحاد) - الضفدع والفأر (أراد
الضفدع أن يأكل فأراً فحاول نخدعة استدراجه
ليتهمه فى الماء ، وهنا ظهرت حدة فالتهمتهما معاً)
من الكتاب الخامس

الوعاء الخزفى والوعاء الحديدى (استنجد الوعاء
الخزفى بوعاء من حديد ليحميه فى رحلته ، ولكنه
ارتطم به فتهشم ... مغزى هذه الخرافة أنه يجدر
بالإنسان ألا يتحد إلا مع من يتساوون به) - الفلاح
وابناؤه (حكاية مغزاها أن العمل أضمن وأثمن
موارد الإنسان).

لفظ « ملخص » أطلقه هنا جزافاً ، ذلك لأنه
يصلح لجميع الدراسات التى تدخل تحت « تراث
الإنسانية » ماعدا تلك التى ننشرها اليوم عن لافونتين.
ولا أشك فى أن القارئ يفطن إلى السر فى هذا :
فولف لافونتين ليس أولاً كتاباً واحداً وإنما إثنا عشر
كتاباً نشرت تباعاً فى ثلاثة دواوين : الأول يضم ستة منها
(١٦٦٨) . والثانى يحتوى على خمسة (١٦٧٨) والثالث
نشر منفرداً (١٦٩٤) والأهم من هذا أن حكايات
لافونتين لا تكون وحدة متماسكة ، وإنما هى حكايات
وكفى ! ، حكايات تقصر أو تطول كتلك التى تعلمناها
فى المدرسة الابتدائية دون أن نعرف أنها من إنتاج
لافونتين ، فمن منا لا يعرف قصة الذئب والحمل ،
أو قصة الغراب والثعلب ، أو قصة الراعى والذئب ،
أو قصة الدب وصاحبه ! ؟ حسبي هنا أن أشير إلى أهم
هذه الحكايات التى سيجد القارئ حافزاً إلى الرجوع
إليها ، ولذة فى الاطلاع عليها .

من الكتاب الأول :

الصرصور والفلة - الغراب والثعلب - الذئب
والكلب - فأر المدينة وفأر الحقول - الذئب والحمل -
الموت والحطاب (الإنسان يفضل الحياة الشاقة على
الموت) - شجرة البلوط وعود البوص (ربما كانت
هذه الحكاية أحسن ما فى هذا الجزء .. مغزاها أن
المرونة أجدى من التصلب) .

من الكتاب الثانى :

النسر والخنفساء (الخنفساء تشأر للأرنب الذى
خطفه النسر بأن تسرق نيضه ثلاثة أعوام متتابعة
فتجبره على الاعتراف بجرمه) - الأسد والفأر
(مغزاها أن الإنسان كثيراً ما يحتاج إلى من هو

من الكتاب السادس

الأرنب والسلحفاة (مغزاها أن التسرع لا طائل فيه ، ففي التأني السلامة) - سائق العربة التي انغرست في الوحل (السائق يتخاذل ويستنجد بهرقل ، ولكل هرقل يرد عليه بقوله : « إن هرقل يريد أن يتحرك الناس قبل أن يساعدهم » ... ويتحضر الرجل ، ويوفق في انزاع عربته من الوحل ... مغزى هذه الحكاية : « ساعد نفسك تساعدك السماء » .

من الكتاب السابع

الحيوانات المصابة بالطاعون (هجاء موجه ضد ظلم الأقوياء وإلى المتملقين على السواء) - الفأر الذي انزل عن الدنيا (هجاء ضد النفاق : فأر يتخذ من قطعة جبن صومعة يتبتل فيها .. ويلجأ إليه إخوانه في الضراء القديم لئلا يلمد إليهم يد المعونة ، ولكنه يخذلهم ، إنه يكفي بمنحهم بركاته) ! ، بلاط الأسد (درس في الحيلة : الأسد يدعو أتباعه إلى زيارته في بلاطه ، أى في عرينه ذى الرائحة الكريهة .. ويستاء الدب فيسد أنفه ، وإذا بالأسد يقضى عليه بالموت بتهمة الوقاحة .. ويزعم القرد أن الرائحة « الهية » فيتقزز الأسد من ملقه الوضع .. أما الثعلب فيدعى أنه عاجز عن الشم لأنه مصاب بالزكام !)

من الكتاب الثامن

الإسكافي ورجل المال (قصة إسكافي تلقى مالا لم يسعده في حياته ... ولم يحقق لنفسه السعادة إلا حين رد هذا المال إلى صاحبه ... إن السعادة ليست في المال ، وإن الغنى الحقيقي في زوال الهموم) الصديقان (حكاية ممتعة تم عن حب لافونتين للصدقة المخلصة . بعض أبيات هذه الحكاية صارت مأثورة :

ما أجمل أن يكون لك صديق حق
انه يبحث عن حاجاتك في أعماق قلبك
وهو يجنبك الشعور بنجس
الافصاح عنها له بنفسك

جنازة اللبوة (صورة صادقة لزيف عواطف رجال القصور - التعريب الكامل لهذه الحكاية في ذيل هذا البحث)

من الكتاب التاسع

القط والثعلب (تفاخرا وهما في الطريق : أيهما أبرع من الآخر ... وفاجأتهما مجموعة من الكلاب .. بادر القط بتسلق شجرة ، وأخفت حيل الثعلب للفرار فخفته الكلاب ، يقول لافونتين في هذه الحكاية : إن تعدد الحيل قد يفسد الأمر لأن الإنسان يضع وقته في الاختيار والمحاولة إنه يريد أن يفعل كل شيء .
لتكن لديك وسيلة واحدة ، ولكن وسيلة طيبة)
الصدقة والمتنازعان (هجاء ضد التخاصم : مسافران يتنازعان على صدقة عثرا عليها .. ويمر قاض فيحسم ما بينهما من خلاف .. لقد التهم لب الصدقة وأعطى كلا منهما إحدى فلقتي غلافها) .

من الكتاب العاشر

يسهل لافونتين هذا الجزء بقطعة شعرية طويلة تقع في مائتين وأربعين بيتاً مهداة إلى مدام دي لاسبلير وبعد أن يزجي مدحاً رقيقاً إلى ولية نعمته ، ينبري لديكارت داخضاً نظريته القائلة بأن الحيوانات إن هي إلا مجرد آلات تتحرك ، ومستنداً في مهاجمته إلى كثير من الأمثلة التي تدل - على العكس - على ذكائها من هذه الأمثلة حكاية الفأرين اللذين نجحا في خداع ثعلب بأن سرقا بيضة منه ! كيف ؟ لقد استلقى أحدهما على ظهره ، وأمسك بالبيضة بين ذراعيه ، بينما أخذ

كل شيء) ... الغابة والخطاب (في هذه الحكاية درس رائع للجاحدين) .

تحليل « الحكايات » :

يمكن أن نستخلص ما يلي من دراسة حكايات لافونتين :

١ - للافونتين طريقتان مختلفتان في تأليف الحكايات : إحداهما ميزت الديوان الأول، والأخرى ميزت الديوان الثاني . كانت الأولى محاولة فاستحالت في الشطر الثاني من إنتاجه إلى خلق بالمعنى الصحيح . بدأ لافونتين بحكايات بسيطة سهلة يرتبط فيها المغزى بالموضوع ارتباطاً مباشراً (مثل الغراب والثعلب - الصرصور والنملة) .. ثم طور هذا النوع الأدبي بأن خرج بعض الشيء على طريقة ايزوب، وإذا بشخصيته تبرز بوضوح ابتداء من الكتاب السابع . وباستثناء بعض قطع رديئة متفرقة ، يبدو لافونتين في الديوان الثاني وقد صار مالكاً لخاصية فنه ، كما تكشف بعض حكاياته عن قدرة فلسفية تبرر مقارنته بكبار الشعراء المفكرين أمثال Lucrèce . من هنا نجد في البداية متريداً ينشر ديوانه الأول تحت هذا الاسم المتواضع : « حكايات ايزوب ، نظم لافونتين » ... ثم زاد طموحه فتناول إلى ما وراء الحكاية بشكلها الذي كان معروفاً ، وأراد أن يوسع مجالها ويحمله إلى « ملهاة عريضة ذات مائة فصل مسرحها العالم » . وعندما شعر بكيانه ووثق في عبقريته لم يتردد في أن يصيح قائلاً :

إن تقليدي ليس أبداً عبودية .

إني لا أستعير سوى الفكرة والإطار والقوانين

التي كان أساتذتنا أنفسهم يتبعونها .

ألا يجدر في هذا الصدد أن يقول لافونتين ما قاله بسكال عن نفسه : لا يجب أن يقول لي أحد إنني لم

الآخر يجره من ذيله .. السلحفاة والبطتان (إن الغرور يؤدي إلى أوحش العواقب : رفعت بطتان عصا بمنقاريهما ، كل منهما من طرف ... وتعلقت سلحفاة بفمها في وسط العصا ... وأثار الركب فضول وإعجاب المارة فكانوا يتنادون صائحين : « يا للأعجوبة ! تعالوا اشهدوا ملكة السلاحف » وإذا بالسلحفاة ترد عليهم قائلة : « الملكة ! هذا حق ! اني أنا الملكة ! وحين تكلمت الحمقاء أفلت فيها فهوت على الأرض وتشمشت)

في الكتاب الحادي عشر

لم يكن لافونتين يدرى أنه سينشر حكايات بعد إتمام هذا الجزء الأخير من الديوان الثاني ، فجعله بمثابة تذييل لكتبه السابقة ، مودعاً فيه إنتاجه وتمنياً أن يصادف كتاباً أفضل منه : يقول :

أقد افتتحت على الأقل الطريق

وسيتاح لآخرين أن يتموا ما بدأت

وهذا الجزء يحتوي على تسع حكايات أهمها : « العجوز والشبان الثلاثة » (مر ثلاثة شبان بشيخ يزرع أشجاراً ، فسخرها من شيخوخته الطموحة ، فرد الرجل بأن الأشجار التي يغرسها قد تنفع أبناءه ، وبأهم - مع ذلك - قد يموتون قبله ... وحدث بالفعل أن توفوا جميعاً قبله ، فأقام الشيخ لذكراهم نصيباً كان يرويه بدموعه) .

في الكتاب الثاني عشر (الديوان الثالث والآخر)

كان لافونتين يدنو من نهايته حين ألف هذا الجزء الذي نشره وهو في الثالثة والسبعين من عمره . لقد فترت حيويته وغدا يهتم بالتفاصيل العقيمة ... ومع ذلك فليس هذا الكتاب بالغ الرداءة ... وأهم ما ورد فيه من حكايات : القط العجوز والفأر الصغير (عن الشباب الذي يزهو ويحسب أن في وسعه الحصول على

آت مجيد ، لأن ترتيبى للمواد جديد» .. بل إنه
ليحق للافونتين أن يقول أكثر من ذلك ؛ إنه صاحب
الحكايات الوحيد الذى يعترف به تاريخ الأدب
الفرنسى ، وإن فنه - كما قال أحد النقاد - لينتمى
إلى الملحمة بطريقة السرد ، وإلى الوصف بالصور ،
وإلى الملهاة بحركة الأشخاص وبتصوير أخلاقهم ،
وإلى شعر الوعظ بالحكم .

٢ - آراء لافونتين تعتمد على فلسفة سليمة
تعترف بحكمة الخالق ، وضعف الإنسان ، وتبدل
الحظ . والأخلاق عنده مستمدة من التجربة الإنسانية :
إنها تحث الإنسان على الحذر والحكمة والاعتدال فى
الرغبات والتأزر وتكر عليه الطيش والبخل والجحود ..
وتلهب فيه روح الصداقة ... الخ .

٣ - ابتكر لافونتين على مر الأيام أسلوباً تستحيل
محاكاته ، وإذا كان بوالوقد زعم أن هذا الأسلوب يشبه
أسلوب مارو Marot ورابليه Rabelais فمن المرجح
- تبعاً لقول سانت بيث Sainte-Beuve - أن يكون
هذا الزعم قد صدر عنه فى لحظة من لحظات المرح ولم
يأت تعبيراً صادقاً عن رأى هذا النقاد .

٤ - لا شئ أشبه بمسرحيات مولير Molière
من خرافات لافونتين . ويقول نيزار Nisard « لقد
اختص لافونتين بالحكاية ، كما اختص مولير بالملهاة » .
أما أوجه الشبه بينهما فهى دقة الملاحظة وتصوير
العيوب واحتواء كل من الحكاية والملهاة على عرض
وعقدة وحل وحوار تشترك فيه كل شخصية
بأسلوب الكلام الذى يلائم طبيعتها ودرجة ثقافتها
ووضعها الاجتماعى (درجة الثقافة فى حكايات لافونتين
بالنسبة للشخصيات الإنسانية بالطبع) . ثم إن الدروس
التي يوجهها كل منهما مستخلصة من التجربة التي
اكتسبها بفضل عمق الملاحظة وطول التأمل .. أما
أوجه الاختلاف بينهما - فنما أن مولير يصور الأشياء

بطريقة مكبرة فى ضوء المسرح (والمسرح مرآة
مكبرة) بينما يصورها لافونتين تصويراً دقيقاً
ورقيقاً .. ومنها أن مولير هاجم عيوب البرجوازية
والآفات التي لا تسلم منها حياة الأسرة ، بينما هاجم
لافونتين هجوماً متحرراً الملك وذوى الجاه ورجال
الدين .. ومن أوجه الاختلاف أيضاً أن مولير أعمق
فى الوصف بينما لافونتين أكثر تنوعاً فى الموضوعات ،
لأنه لا يغفل أى شئ فى ملحمة الطويلة ... وكيفما
كانت درجة تشابههما ، فقد قال عنهما سانت بيث :
« إن الإنسان لا يفصل مولير ولافونتين أحدهما عن
الآخر .. إنه يحبهما معاً » .

٥ - ما السر - وعبقري لافونتين بارزة الملامح
فى حكاياته - فى أن بوالو ، وهو مقنن الشعر فى العصر
الكلاسيكى ، لم يذكر شيئاً عن « الحكاية » ضمن
أنواع الأدب اللثائية التي أحصاها فى الغناء الثانى من
كتابه « فن الشعر » ؟^(١) ... إن المجال لا يتسع هنا لأن
أسوق جميع افتراضات نقاد الأدب فى هذا الشأن ،
وأن اتناولها بالبحث والتعليق ، ولكن حسبي أن
اكتفى باثنين منها . أما سانت بيث فيعزو صمت
بوالو إلى صدى استياء لويس الرابع عشر من
لافونتين - وهو المتشدد فى مسائل اللياقة - منذ نشر
أقاصيصه Les Contes ... (وقد كان مؤلف
الأهاجى صاحب حظوة لدى هذا الملك) ... وأماميشو
Michaut فيقول « إن الخرافة » لا تخضع لقواعد
محددة بينما كانت مهمة بوالو وضع القواعد والقوانين ..
ثم إن ما ذكره بوالو عن قواعد الفن العامة (فن
الشعر : الغناء الأول) تكفى لأن تنسحب على « الخرافة »
مثل انسحابها على الرسالة الشعرية أو الاقصوصة ...
وكيفما كانت حقيقة الأمر ، فإن اغفال بوالو ذكر

(١) عن تصنيف بوالو Boileau لأنواع الأدب ارجع
إلى « تراث الإنسانية » ، العدد الثالث ، مارس ١٩٦٣ « فن الشعر »
لبوالو بقلم الدكتور على درويش »

لافونتين وحكاياته في « فن الشعر » يُعد أحد أخطائه التي لم تغتفرها له الأجيال التالية .

٦ - يثير جان چاك روسو في القرن الثامن عشر ولامرتین Lamartine في القرن التاسع عشر مسألة أخلاقية حكايات لافونتين ، وينكر أن صلاحيتها لتثقيف الطفل ... فما موقف كل منهما ؟ ... يقول روسو في كتابه « إميل L'Emile » : « لن يحفظ إميل شيئاً على الإطلاق عن ظهر قلب ، حتى ولا الخرافات ... حتى ولا خرافات لافونتين بالرغم من أنها جذابة ولا تكلف فيها » . هنا نخيل لقارئ الكتاب أن روسو يناقش مسألة الحفاظ بالنسبة للأطفال ، إلا أن هذا الكاتب الفيلسوف يرمي - بعد هذه المقدمة الخبيثة في لباقها - إلى مهاجمة لافونتين مهاجمة مباشرة وإلى تسفيه حكاياته ، فيدخل بعد ذلك في سفسطات بارعة ... يقول إن الأطفال جميعاً يلقنون حكايات لافونتين بينما لا يفهمها أحد منهم .. وهم إن فهموها كانت الطامة ! ذلك لأنها تخضعهم على الرذيلة أكثر من حضها لهم على الفضيلة . ويعلق - على سبيل المثال - على حكاية الغراب والتعلب فيقول إنها تضم كلمات كثيرة يتحتم شرحها للطفل ، وألفاظاً لا تستعمل إلا في الشعر الأمر الذي سيدفع هذا الطفل إلى السؤال عن علة اختلاف لغة الشعر عن لغة النثر ... فماذا سيرد عليه ؟ ! (سفسطة كما قلت) . ويستطرد قائلاً : « إن التعلب في هذه الخرافة قد شتم رائحة الجبن (الذي في فم الغراب) لا بد أن رائحته نفاذة إلى هذا الحد .. فهل يُمرّن الطفل هكذا على الحكم الصائب على الأشياء ؟ ! (سفسطة أخرى !) . ويعود روسو إلى الحديث عن الأثر العكسي الذي يمكن أن تحدثه الحكايات في الطفل ، ثم يقول إن بعض الأطفال يهزأون بالغراب ولكنهم جميعاً يحبون التعلب . ثم يزعم بعد ذلك أن دور الأسد في حكايات لافونتين من شأنه أن يجعل الأطفال يتشبهون به في سلوكهم ، فإن وجدوا في مجال

تقسيم شيء حاولوا الاستئثار بنصيب الأسد ! ... (سفسطة أخرى ... الحق إن اتهامات روسو لا تستحق أي دفاع ..)

ويقول لامرتين في مقدمة « التأملات » : « إن حكايات هذه الحيوانات التي تتكلم ، ويعطى بعضها بعضاً دروساً ، والتي يسخر بعضها من بعض ... حكايات هذه الحيوانات الأنانية ، الساخرة ، البخيلة ، عديمة الصداقة ، الأكثر شراً منا ، تثير التقزز في نفسى . حكايات لافونتين عبارة عن فلسفة صلبة ، باردة ، أنانية ، صادرة عن رجل مسن أكثر منها فلسفة كريمة سهلة تصلح لطفل . وهي بالنسبة لعمر الطفل ليست بمثابة اللبن وإنما بمثابة المرارة ... لقد كان لافونتين فيلسوفاً ذكياً ، ولكنه فيلسوف ساخر ، فبماذا يُحكّم على شعب يبدأ تعليم أبنائه بدروس رجل ساخر ؟ ... الخ » . وهنا يمكن التساؤل عن السر الذي دفع لامرتين إلى كتابة هذه الصفحة المهينة ، ألم تجيء حكايات لافونتين تصويراً حياً وصادقاً للمجتمع ؟ . لنعهد إلى سانت بيث بتفسير موقف الشاعر الرومانسي ، يقول : « إنى لا أريد أن أرى في هذه الصفحة إلا أثر التنافر بين طبيعتين ، والصراع بين شعرين ... لقد كانت محاولة لامرتين في ميدان الشعر تهدف إلى منح فرنسا شعراً عاطفياً ، ميثافيزيقياً ، صوفياً بعض الشيء ، غنائياً ، موسيقياً ، دينياً وإنسانياً مع ذلك ، شعراً يأخذ العواطف مأخذ الجسد ولا يبتسم » . ثم يلخص سانت بيث ببلاغة حكمه الفاصل الذي يضع كلا من الشاعرين في مكانه الحقيقي ، يقول : « ... وبكلمتين نقول إن لامرتين يشرب نحو الملاك ، أما لافونتين فهو في الوقت الذي يبدو فيه أنه يرتفع بالحيوان إلى مرتبة الإنسان لا ينسى أبداً أن الإنسان ليس إلا أول الحيوانات » . إن عبقرية لافونتين في هذه العبارة الموجزة : لقد ترك إنتاجاً فذاً أهم خصائصه الطرافة والإنسانية والواقعية ... فتر اهتمام الأجيال المتعاقبة

« بالتأملات » منذ انتهت المدرسة الرومانسية ، بينما ازداد تأثيرها « بالحكايات » ... لافونتين يكبر لامرتين بعمره ، ويكبره أيضاً بمجده ... والفرق بين « العمرين » أكثر من قرن ونصف ، والفرق بين المجدين هو أن لامرتين يتمتع ، ولكن لافونتين يتمتع ويعلم .

أثره في تراث الإنسانية :

إن القيمة الحقيقية لإنتاج ما لاتقاس بالإعجاب الذى تثيره بقدر ما تقاس بالتأثير الذى تحدثه على مر الأيام ، ويمكن القول فى هذا الصدد إن حكايات لافونتين لاتشعر بأى حسد إزاء روائع الأدب الفرنسى . يروى عن لويس راسين (ابن الكاتب التراجيدى) أن مولير قال له : « علينا ألا نسخر من « الرجل الطيب » (لافونتين) فربما عاش أكثر منا جميعاً (يقصد عمر الإنتاج) » ... ولقد صدقت نبوءة خالق الملهاة فى فرنسا ، إذ بقى لافونتين وسيظل حيا ما بقى الأدب ، بينما دُفنت مؤلفات كثيرين من معاصرة فى مقبرة الكتب ، ودُفنت فيها كذلك كتب الحكايات التى ألفها جميع من حاولوا تقليده .. كلها بغير استثناء ! ولم يعد لإنتاج لافونتين غذاء عقلياً خفيفاً يعطى للأطفال ، وإنما عُرِفَت على مر الزمن القيمة الحقيقية لعناصره الغذائية فاعتُبر بمثابة وجبة دسمة يمكن كذلك أن تُشبع حتى ذوى العقول القذة .
وها هو أندريه جيد André Gide أحد أعلام الأدب الفرنسى فى النصف الأول من هذا القرن ، بل أحد أعلام الأدب العالمى فى جميع العصور يصرح فى إحدى كتاباته بأنه - وهو فى أحرش الكونغو - كان يعيد قراءة حكايات لافونتين من أولها إلى آخرها ، ويقول : « أى أدب قدم شيئاً أجود وأكثر حكمة وكالاً » مما نجده فيها ؟
والحق إن لافونتين - كما قلت - من هؤلاء العباقرة

الذين يتضاعف مجدهم على مر الأيام ، فمثلاً أشاد بعبقريته فولتير (فى القرن الثامن عشر) فلما أتى القرن التاسع عشر إذا بسانت بيث يقول : « لو أن ناقداً أكثر جرأة من فولتير أتى يقول : « إن هوميروس فرنسا الحقيقى ... من يظن ذلك ؟ ... هو لافونتين » ، لفكرت الأجيال المتعاقبة لحظة ثم لصاحت قائلة : « هذا صدق » .
ولقد كان سانت بيث هو نفسه بالفعل ذلك الناقد الأجرأ الذى أراد له لتقويم عبقرية لافونتين .. ألم يقل فى مكان آخر : « ... إن هوميروس الفرنسين - من يظن ذلك ؟ - هو لافونتين » .

لم تكن حكايات لافونتين حديثاً بالنسبة لمعاصريه ، فلم تثر ضجة أو جدلاً ، ومع ذلك فقد أثرت فيهم وفى الأجيال التالية أعمق التأثير . لأنها فحسب نموذج للإجادة فى الشعر ، ودراسة صادقة لسلوك الإنسان ، ومجموعة من النصائح الخلقية العملية ، ولكن لأنها أيضاً خلق جديد لم يضارع فيه لافونتين أحد - كما قلت - بالرغم من المحاولات العديدة . وحسبنا أن نلقى نظرة سريعة على طبعات هذا المؤلف الفذ المتتالية لنذكر مدى ما أحرزه من نجاح مطرد .. نجاح كان مغرباً لذيوار النشر إلى حد أن بعضها نشرت الطبعات المزيفة الواحدة تلو الأخرى ! من هذه الطبعات المزيفة واحدة فى فرنسا فى عام ١٦٦٨ ، وأخرى سنة ١٦٨٢ فى امستردام ، وثالثة سنة ١٦٨٨ فى انفرس Anvers ببلجيكا ، ورابعة فى لاهاي بهولنده ، وخامسة فى انفرس من جديد ، وسادسة وسابعة فى امستردام مرة أخرى ، وفى سنة واحدة (١٦٩٣) ، وطبعتان مزيفتان كذلك فى ليون ، فضلاً عما تدفق من هذه الطبعات المزيفة على الأقاليم الفرنسية منذ عام ١٨٦٩ ... أما الطبعات الحقيقية فيقدر عددها بأكثر من مائة وخمسة وعشرين طبعة فى القرن الثامن عشر ، وبألف ومائتين فى القرن الذى تلاه ، ومعظم هذه الأخيرة طبعات

مدرسية . حقيقةً لقد صدق رينيه بريه René Bray حين قال : « ما أسعد البلد الذى « يملك » واحداً كلافونتين يعلم أبناءه ! » .

وما أكثر — كما ذكرت — الكتاب الذين قلدوه ! لقد بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر أكثر من مائة فى فرنسا وحدها ، وتخطى عددهم هذا الرقم فى القرن التاسع عشر ؛ ولكن ما من واحد منهم يستحق الذكر ، لأن لافونتين كان قد أبلغ الخرافة ذروة الكمال طفرة واحدة ؛ فلم يبق فى مجالها من بعده مكان لأحد . . . هؤلاء المقلدون استعاروا من حكاياته مادتهم ، وطعموا إنتاجهم بأبيات من شعره ، وحاولوا أحياناً أن يعتمدوا على أنفسهم فأسفوا إسفاً يذكركنا بعبقرية لافونتين ! ماتواهم وبقي لافونتين ، لأن حكاياته — على حد قول نزار Nisard هى اللبن الذى يتغذى به الطفل ، والتجيز الذى يأكله الرجل ، وآخر طعام دسم يتناوله الشيخ . . . معنى هذا أن هذه الحكايات تسهم فى تكوين عقل الطفل ، وتفيد الرجل فى حياته العملية ، وتتجاوب — عند الشيخ — مع خلاصة تجاربه فى الحياة .

من حكايات لافونتين :

جنازة اللبوة

ماتت زوجة الأسد ،

فهول كل واحد

ليوفى للأمير

بعض عبارات العزاء

المفعمة بالحزن .

وأمر الأمير بإخطار اقليمه

بزمان الجنازة ومكانها ،

كما أمر بأن يحضرها حرس القصر

لينظموا الموكب ،

وليصحبوا الرفاق إلى أماكنهم . .

تصور أن كل واحد من هؤلاء الرفاق قد حضر

وأمعن الأمير فى الصراخ

وكان عرينه يدوى .

إن الأسود لا تملك معبداً غير عرينها .

وسمِع أفراد الحاشية — متشبهين بالأمير —

وهم يزأرون كل بلهجته .

إنى أعرف البلاط بأنه بلد الناس فيه

على استعداد للابتئاس والاعتباط بالرغم من أنهم

لا يبالون بشئ .

أنهم يتصرفون بما يرضى الأمير ، فإن أعجزهم الأمر

حاولوا على الأقل التظاهر به

شعب كالخرباء ، شعب يحاكى سيده .

كان تخيل للمرء وكأن روحاً واحدة تشيع فى

ألف من الأجساد .

إن الناس فى هذه الحال مجرد آلات .

ولنعد إلى شأننا .

لم يزرف الوعل عبرة واحدة ، إذ كيف كان

فى مقدوره أن يبكى ؟

إن هذا الموت يثأر له : لأن اللبوة فيما مضى

كانت قد خنقت زوجته وابنه .

وباختصار لم يبك . وراح أحد المداهنين يقول

ويؤكد أنه شاهده وهو يضحك .

إن غضب الملك — كما يقول سليمان —

غضب فظيع ، ولا سيما إن كان الملك أسداً ،

ولكن الوعل لم يكن متعوداً على القراءة .

قال له الملك : « أيها الهزيل ساكن الغابة ،

أنت تضحك ولا تتبع هذه الأصوات الناحبة !

إننا لن ندخل أبداً فى أعضائك الدنسة

أظافرنا المقدسة ؛ فتعالوا يا ذئاب ؟

خذوا بثأر الملكة واقتلوا جميعاً

هذا الخائن من أجل روحها المبجلة » .
حينئذ قال الوعل : « مولاي ، إن وقت البكاء
قد انقضى ،

والأم الآن لا طائل فيه ؛
إن شريكك الفاضلة قد ظهرت لي في حلم
وهي مسجاة وسط الزهور ؛
ولقد تعرفت عليها ،

وقالت لي : « أيها الصديق ، احذر أن يدفعك
هذا الموكب إلى البكاء حين سأذهب إلى الآلهة .
فلقد حظيت في رحاب الجنة بشتى أنواع النعيم

إذ تحدثت مع أمثالي من القديسين ،
لتدع الجزع بعض الوقت يلم بالملك ،
فذاك أمر يسعدني » .. ولم تكذب تسمع هذه الكلمات
حتى علت الصيحة : « أعجوبة ! مجد ! »
ولم ينل الوعل أى عقاب ، بل ظفر بعطاء .
إنك إن رفعت عن الملوك بذكر الأحلام ،
وإن تملقهم ، وإن سقت إليهم المتع من
الأكاذيب

فهما كانت قلوبهم مفعمة بالسخط ،
فسيتلعون الطعم ، وستصبح صديقاً لهم

